قبائل الهوسا :

جذور وانتشار واسع المدي في ربوع القارة السمراء

تُعد قبائل الهوسا من اكبر القبائل والعرقيات انتشاراً علي مستوي القارة الافريقية، حيث ان وجودها وامتداد نطاقها الجغرافي يتوغل ويشمل عدداً العديد من دول القارة السمراء، حيث تشير تقديرات المختصين ان تعداد قبيلة الهوسا يجاوز الـ ١٠٠ مليون حول العالم .

يبدأ الموطن التقليدي لقبائل الهوسا من منطقة جبل الهواء في النيجر مروراً ببحيرة تشاد ثم الي داخل دولة مالي (التي كانت تعرف بإمبراطورية السوجاي القديمة على طول وادي نهر النيجر) ثم تمتد لداخل دولتي نيجيريا والسودان،من ناحية اخري ولظروف خروج مجموعات كبيرة من الهوسا من موطنها الأصلى بهدف التجارة وآداء الحج أصبح للهوسا وجود ملحوظ وإن كان متبايناً من حيث العدد فى كل من غانا والجابون وحتي بعض مناطق في المملكة العربية السعودية.

الهوسا هى المنطقة الواقعة شمال نيجيريا الحالية وكانت تُعرف بإسم Hausa Bekwai ويوجد بها ممالك الهوسا القديمة السبعة(كانو ، زاريا ، كاسنا ، رانو ، غوبير ، دورا ،زمفرا) التي كانت محمية بقلاع واسوار لحمايتها من الغارات والهجمات المتبادلة بين تلك الممالك التي كانت تتناحر فيما بينها من اجل الزعامة ،الي ان جاء الشيخ عثمان دان فوديو الذي استطاع توحيدها معاً ،و ضمَّها الي ما يُعرف بخلافة سكوتو هوسا .

المدلول والمعني الاشتقاقي لإسم قبائل الهوسا :

الهوسا هي اشتقاق لمقطعين اولهما: هو بمعنى: راكب، والمقطع سا بمعنى: الثور أي ان القبيلة يعني اسمها (راكب الثور) حيث تذكر الروايات القديمة أن مجموعة من الأغراب زاروا بلاد الهوسا وكانوا يستخدمون الثور كوسيلة للنقل والترحال وأطلق عليهم راكبوا الثور وهو الاسم الذي عُرفت به القبيلة بعد ذلك.

** لغة الهوسا:

لغة الهوسا من لغات العائلة التشادية التي يتحدَّث بها سكان شمال نيجيريا وجنوب جمهورية النيجر وشمال غانا وهى لغة يتم استخدامها بلهجات متعددة أولها لهجة أهل التجارة، وثانيها اللهجة الكلاسيكية الدينية، وثالثها اللهجة العابرة للصحراء، ويُذكر في هذا الصدد ان لغة الهوسا وان كانت احدي اكثر اللغات تداولاً وحضوراً في اقليم غرب افريقيا إلا انها ليست الاولي بينهم وإنما تنافسها لغة اخري هي

السواحيلية و لغة الفولانى أو الفلفلدى التي يتم استخدامها فى أكثر من ١٠ بلدان فى غرب إفريقيا، إلا ان انتشار استخدام لغة الهوسا و التعامل بها على نطاق جغرافى تجارى واسع جعلها اكثر تداولاً مثل اللغة السواحيلية.

وبشكل عام فإن لفظ كلمة هوسا تُطلق علي البلاد والقبائل والسكان واللغة التي تتواجد بها تلك القبيلة الممتدة الاطراف. ومن الطريف أن لهجة الهوسا تُصنف على أنها واحدة من فصيلة اللغات الآفرو - آسيوية، ورغم ذلك فإن من يتحدثون بها اليوم لا ينحدرون من عرق واحد.

وتُدرس لغة الهوسا بالاحرف اللاتينية والعربية ، ويتم بثها عبر أكثر من ٣٠ اذاعة حول العالم كما يتم تدريسها في كثير من جامعات العالم.

أصل شعب الهوسا:

تعددت الكتابات التي تحدثت عن أصل شعب الهوسا ومنها ما هو موثق ومنها ما هو تراثي فمن القائلين أنهم مزيج من مجموعات قبلية اختلطت مع تلك التي كانت تقطن أقصى جنوب الصحراء الأمر الذي فرض على هذه المجموعات تبني لغة الهوسا وعاداتها أي انها قبائل ذو جذور محلية استقرت فى هضبة بوتشى وطورت لغتها وثقافتها مع الوافدين من الصحراء، يرى اخرون أن قبائل الهوسا تحمل جذوراً عربية اتت من العراق، إلا أن مصادر اخري تري إنها قبائل كانت تمتهن الزراعة والصيد على طول الشاطئ الغربي لبحيرة تشاد .

من ناحية اخري خلُصت بعض الدراسات الي ان الهوسا هم عبارة عن مزيج من العنصر الحامي (البربري) مع العنصر الزنجي نتجت عن الهجرات التي قام بها البربر من شمال إفريقيا ثم ما لبثت ان اختلطت بالعناصر الزنجية المستقرة في إقليم السافانا الأوسط، حيث نشأت هذه المجموعة العرقية الجديدة وتوحدت في لغة وثقافة وعادات ميزتها عن غيرها، وعرفت بإسم الهوسا وذلك مع بدايات القرن العاشر الميلادي .

وطبقاً للأساطير المروية حول اصول قبيلة الهوسا، فإن القبيلة تعود جذورها للأمير(بايا جيدا) الذي ارتحل من بغداد إلى منطقة كانيم – بورنو ، وتزوج من (بيرام – تاغاباس) ابنة ملك بورنو، الذي دخل معه في خلافات سياسية فر علي اثرها باتجاه الغرب تاركاً زوجته، وفي طريقه صادف أفعى ضخمة كانت تمنع الأهالي من سحب الماء من احد الابار، فما كان منه إلا أن قام بقتلها بسيفه ، ولإعجابها بشجاعته قررت ملكة البلاد (ودورا) الزواج منه على الفور وكافأته أيضاً بجارية حيث رزق من الاميرة بسبعة ابناء هم

اصحاب وحكام الممالك السبعة لقبائل الهوسا (كانو ، زاريا ، كاسنا ، رانو ، غوبير ، دورا ،زمفرا)، أما الجارية فقد رزق منها بإبن هو كربو جاري الذي أنجب بدوره سبعة من الأبناء هم كبي ، زافارا ، جواري ، جوكون ، ياروبا ، نوبي وياووري ، إلا أن هؤلاء كما يروى قد كونوا دولا جديدة كان يطلق عليها اسم (بانزا) أي دول غير شرعية.

الحياة السياسية:

إن التاريخ القديم لدولة الهوسا يشير إلى أنها تشكلت في عام ٩٩٩م على يد الملك كانو حيث كانت تضم مجموعات صغيرة من المستوطنات تحولت فيما بعد إلى مدن ودول ، وكان أقوى جيرانها إمبراطورية كانيم – بورنو إلى الشرق ، وإمبراطورية السونغاي إلى الغرب.

وفي عام ١٥٠٠ أصبحت زاريا أقوى دول الهوسا ، وكانت تسيطر لبعض الوقت على ممالك النوبة وجوكون بالجنوب .

كما تؤكد الدراسات ان الفترة من عام ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ م كانت تمثل العصر الذهبي بالنسبة لتطور

منطقة غرب أفريقيا بشكل عام والهوسا بشكل خاص حيث كانت فترة توسع وازدهار تجاري بين المدن والدول والإمبراطوريات حيث كانت إمبراطورية كانيم – بورنو من أهم الكيانات السياسية في تلك المنطقة.

وتذكر كتب التاريخ ان قبائل الهوسا لعبوا دوراً سياسياً وبخاصة ايام المستعمر الاوروبي، ففيما تشير الوثائق إلى اعتماد الفرنسيين على جنود تم الحاقهم بالجيش الفرنسي من قبائل الهوسا لمساعدتهم على السيطرة على جزيرة مدغشقر ، استعان البلجيكيون بمجموعات منهم للسيطرة على الكونغو ، في نفس الوقت الذي استعان الألمان بهم أثناء قيامهم بغزو الكاميرون حيث عمل هؤلاء كمرشدين لهم ، أما بريطانيا فقد اتبعت نهج ادخالهم ضمن قواتها الشرطية في عام ١٨٦٣ وكان لها دور في إلحاق الهزيمة بقبائل الأشانتي التي كانت تفرض سيطرتها في غانا عام ١٨٧٣، وبعد انتصار البريطانيين تم منحهم الحرية وتمليكهم أراضي حتى أصبحوا مجموعة ذات امتيازات خاصة .

من ناحية اخري يُنظر الي ان بدايات توحيد قبائل الهوسا تعود الي الشيخ عثمان دان فوديو الذي قام بتأسيس اول خلافة إسلامية عُرفت بخلافة سوكوتو (سقطو) اوائل القرن التاسع عشر، الي أن سقطت عام ١٩٠٣ علي يد المحتل البريطاني الذي استعمر منطقة سوكوتو، وفي هذه الأثناء وعلي الرغم من الاحتلال البريطاني الا ان تلك الفترة شهدت توسعا لنفوذ القبيلة التي اختلط سكانها بسكان البلاد المجاورة لهم في بوركينا فاسو وبنين وغانا والكاميرون ونجحوا في تأسيس مجتمعات برعت بالتجارة كما امتد الهاوسا شرقاً وصولاً إلى مناطق في السودان وتشاد ومناطق أخرى في الشمال والجنوب مؤثرين بعاداتهم وتقاليدهم.

** ديانة الهوسا:

الاسلام هو الدين الرئيسي لقبائل الهوسا ويدين به نحو ٩٨٪ من ابناء القبيلة حيث تم نشره على يد المسلمين القادمين من شمال إفريقيا ومن مالي والدول المجاورة الأخرى، كما كان الإسلام معروفاً لدى قبائل الهوسا منذ عام ١٣٠٠ للميلاد إلا ان تأثيره ازداد مع تدفق المهاجرين والتجار إلى المدن والقرى، وكانت قبائل الهوسا تنظر إلى الإسلام في البداية بعين الريبة لذا استمروا لفترة طويلة متمسكين بديانتهم التقليدية، وفي عام ١٤٠٠ للميلاد اعتنق أهالي كانوا وكاتسينا الدين الجديد، والبث ان تعزز هناك على يد العلماء المسلمين، إلا ان طفرة التحول الكبير نحو الإسلام حدثت عام ١٨٠٠ م حينما أعلن جميع ملوك الهوسا اعتناقهم للإسلام واعتباره الدين الرسمي لدولهم وذلك خلال حكم الشيخ عثمان الذي قام بتأسيس اول خلافة إسلامية عُرفت بإسم "سوكوتو".

من ناحية اخري تنتشر اللغة العربية بمناطق الهوسا بشكل ملفت للنظر، كما يحرصون علي تربية أبناءهم طبقاً للتعاليم الإسلامية منذ الصغر بدءا بحفظ القرآن ثم التدرج في تدريس علوم اللغة العربية والشريعة، كما يكثر أتباع الطرق الصوفية وخاصة الطريقة القادرية والتيجانية.

وتدليلاً علي اهتمامهم باعلاء قدر اللغة العربية ادخلت الهوسا بعض مفردات اللفة العربية في لغاتهم ولهجاتهم المحلية، فعلي سبيل المثال دخلت صيغة التذكير والتأنيث ضمن مفرداتهم التي لم تكن تفرق بين التذكير والتأنيث، و باتت لغة الهوسا بذلك بمثابة اللغة الإفريقية الوحيدة التى تتميز بهذه الميزة ، كما تشهد الهوسا شيوعاً علي صعيد أيام الأسبوع بقول السبت، الجمعة، الأحد، الخميس، وعقود الأعداد عشرون، ثلاثون، أربعون، خمسون، تسعون، سياسة، جماعة، الهرة، دليل، بصل، نتيجة....الخ.

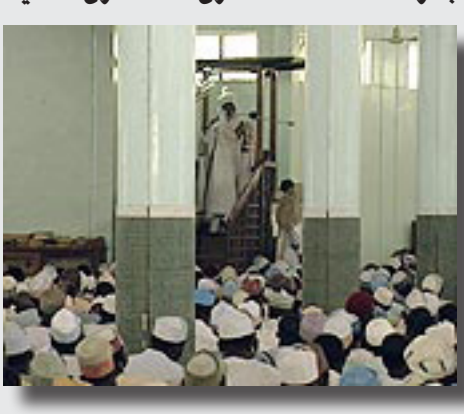

واللافت للنظر ان أن قبائل الهوسا ومنذ ان دخلت الإسلام فى أواخر القرن الثالث عشر حرص أعداداً كبيرة منهم علي اداء فريضة الحج التي يُنظر اليها ليس

باعتبارها ركناً دينياً وإنما مناسبة إجتماعية وثقافية وسوقاً إقتصادياً.

** العادات والتقاليد:

السمة العامة لملابس أهالي الهوسا وتصميماتها والوانها انها نفس الأزياء التي تنتشر في اقليم غرب إفريقيا، ويُلحظ تأثيرها الخاص في الملابس التي يرتديها الغانيون بشكل عام ، ويقوم اللباس التقليدي لنساء الهوسا على تنوع كبير في التصميم والنسيج و الزركشة ، ويتكون الزي النمطي للمرأة هناك من رداء واسع و لفاع وبلوزة ورابطة وغطاء للرأس، فيما يعتمد حجم الزركشة على ذوق المرأة ودخلها .

أما الرجال فيلبسون الزي الفضفاض (العباءات) وقد كان هذا الزي أساساً مخصصاً للملك وكبار المسؤولين والأئمة ورجال الدين من قبل.

=لا تزال بعض المعتقدات الشعبية الافريقية تسيطر علي توجهات أهالي الهوسا الذين يؤمن بعضهم بأن الشيطان هو سبب الأمراض التي تصيب الإنسان، ومن ثم يقومون بإجراء طقوس خاصة لطرده من الأجساد المصابة، كما يؤمن قطاع من أهالي الهوسا أن الشيطان يستطيع التشكل في أشكال مختلفة، فهو يكون أحياناً على شكل

رئيس متميز ، وقد يكون ذا لون أبيض أو مغبر ، كما يعيش بالجبال والغابات والماء.

وفيما يتعلق بمجال الرياضة تعتبر المصارعة والملاكمة من أهم الانشطة الرياضية التي يمارسونها في أوقات فراغهم، و تبدو المصارعة أكثر شعبية في قرى الأقاليم الشمالية مقارنة بالمدن الكبرى، وحتى يصير الشخص مصارعاً جيداً فعليه البدء في التدرب على هذه الرياضة ابتداءاً من سن ١٥ على يد مصارعين من ذوي الخبرات في مجال هذه الرياضة.

وتُعد الموسيقي جزءاً حيوياً في حياة وممارسات قبائل الهوسا الاجتماعية، وأمراً تقليدياً يلقى الدعم من جانب هذه المجتمعات ، وغالباً ما تقوم النساء بالغناء خصوصا في مواسم الجفاف فيما يقوم الرجال بالرقص الافريق بحركاته وملابسه المبهجة والمزركشة الالوان.

اما فيما يتعلق بتقاليد وعادات الزواج لدي قبائل الهوسا، فإن ثمة قواعد وعادات محددة تحكم الزواج التقليدي لدى أهالي الهوسا، حيث يتم الزواج وفق الشريعة الإسلامية ويتطلب إيجاباً وقبول الطرفين المعنيين، ويتعهد الزوج بتحمل مسؤولية توفير الطعام والملابس والسكن لزوجته بحضور شهود على عقد الزواج ، كما يقوم بدفع المهر المتفق عليه ، كما يجوز تزويج الأطفال لدى أهالي الهوسا خاصة في المناطق الريفية التي يفضل سكانها الزواج المبكر، ويمكن رؤية اطفال في سن الخامسة أو السادسة من العمر وهن ينتقلن من بيوت أهلهن لتعشن في بيت ازواجهن، وفي ظل هذه الظروف والعادات، فإن آباء الأولاد من الأزواج يتحملون مسؤولية المحافظة على الأزواج الصغار.

** الهوسا في نيجيريا:

تتوزع قبائل الهوسا في نيجيريا على مساحة جغرافية واسعة وتعتبر المجموعة العرقية الكبرى

بالأقاليم الشمالية لنيجيريا أو كما يشار إليها عادة باسم (الشمال الأقصى) أو (مسلمو الشمال) إذ تبلغ نسبتهم حسب بعض التقديرات ربع سكان البلاد ويُقدر تعدادهم بحوالي ٢٠ مليون نسمة ، تليها في التعداد والقوة مجموعة عرقية تُعرف بإسم قبائل الفولاني التي يبلغ تعدادها حوالي خمسة ملايين مواطن، ولأن قبيلتي الهوسا والفولاني ترتبطان بعلاقات وثيقة، فإن النيجيريين اعتادوا على القول بأنهما مجموعة قبلية واحدة، ومع ذلك فإن البعض منهما يعتبر أن كلا منهما متميز عن الآخر، وعلى سبيل المثال ما زال الكثير من الفولانيين يفتخرون بحياة البادية ورعي قطعان الابقار والاغنام، وينأون بأنفسهم عن الاستيطان وممارسة مهنة الزراعة التي تميزت بها الهوسا.

و لتقا ر بهما اجتماعياً فقد نشأت بين القبيلتين (الهوسا والفولاني) علاقات مصاهرة و تزاوج ، كما ظهرت بينهما سمات ثقافية مشتركة - فعلى سبيل المثال - ومع أن اللغة الأولى لقبائل الفولاني تعرف باسم فولفور ، فإن أفراداً منها يتكلمون لغة الهوسا كلغة ثانية، الأمر الذي يعزز التكامل العرقي بينهما.

ولم تستقبل قبائل الهوسا المهاجرين من الشمال فحسب ، لكن البعض يعتقد أنهم هم أنفسهم هاجروا إلى الجنوب من منطقة الصحاري إلى أرض غنية بالأعشاب فراراً من الجفاف والنزاعات مع المجموعات العرقية المنافسة الأخرى بمن فيهم بربر الطوارق.

يمارس الهوسا النيجيريون الزراعة ويستقرون في حواضر من أبرزها مدينة كانو شمال نيجيريا والتي ظلت منذ عشرة قرون مركزا للإشعاع الإسلامي والثقافة العربية، وكذلك يتواجدون بكثرة في مدن سوكوتو و كاتسينا و كادونا و عبادان.

وعلي النقيض من حالة التوافق التي تطغي علي علاقات قبيلتي الهوسا والفولاني، تشكو قبيلتا الإيبو و اليوروبا المسيحيتان من أن الهوسا تسيطر على الشأن السياسي النيجيري، كما تتهمانها بالهيمنة على مؤسسة الجيش، بل تذهبان في دعواهما إلى أنها المستفيد الأول من ريع النفط وغيره مع أنه مستخرج من أراضي اليوروبا .

وقد ظهر الصراع المبكر بين الهوسا و الإيبو بعد الاستقلال عندما اغتيل الرئيس النيجيري جونسون آجيلي إرونسي الذي تنحدر اصوله من قبيلة الإيبو على يد ضباط شماليين في يوليو ١٩٦٦ وما تلا ذلك من إبعاد كوادر الإيبو من السلطة وتولى يعقوبو كوون الذي ينحدر من قبيلة الهوسا رئاسة البلاد ما تسبب في دخول البلاد حربا أهلية استمرت ثلاث سنوات قتل فيها أكثر من مليون شخص من الهوسا والإيبو، انتهت بانتصار الشماليون على الجنوبيين.

و لكن الصراع بين الإيبو والهوسا على السلطة لم يتوقف عند ذلك حيث شهدت حقبة التسعينات انقلابين من تنظيم ضباط من الإيبو ضد الرئيس المنحدر من قبيلة الهوسا، ولا يزال الصراع محموماً بين القبيلتين حتي الأن وان كان معدل الصراع يخبو حيناً ويشتعل احايين اخري.

اما علي صعيد الخلاف والتنافس بين اليوربا والهوسا فقد لوحظ ان له ابعاد مختلفة حيث يقيم كثير من أبناء قبيلة الهوسا في مناطق نفوذ اليوروبا والعكس أيضا وهو ما ادي لتزايد الصدامات بين المجموعتين، والتي غالبا ما تتحول إلى موجات ثأر

وانتقام، امتدت للصراع على الحكم حيث قام ضباط من اليوربا بانقلاب عسكري فاشل ضد حكومة مرتلي محمد في فبراير ١٩٧٦ بقيادة بوكا ديمكا، ومن مظاهر الصراع بين الهوسا واليوروبا ما وقع عام ١٩٩٠ حين تمت المصادقة على دستور جديد كرس العودة إلى الحكم المدني. وقد ألغت حكومة بابانغيدا الانتخابات التي أجريت عام ١٩٩٢ بحجة تزويرها، وألغت الانتخابات التي تلتها بعد سنة ونجح فيها مسعود أبيولا وهو مسلم إلا أنه من قبيلة اليوروبا. وتحت ضغط شعبي وسياسي متصاعد تخلى بابانغيدا عن السلطة ليصبح أرنست شونكان -وهو مدني- رئيسا لنيجيريا يوم ٢٧ أغسطس ١٩٩٣إلا انه نُحي عن الحكم

بعد ثلاثة أشهر لصالح أحد ضباط الهوسا.

** قبائل الهوسا في مالى:

كانت مملكة مالى فى أوج عطائها الثقافى والحضارى فى القرن الثالث عشر ونشأت علاقات تجارية بين بلاد الهوسا،حتى برزت مملكة صنغاى عام ١٤٩٢م التي دخلت في خلافات وصدامات سياسية وصلت لحد التقاتل بين الجانبين حيث أرسل الملك أسكيا محمد حملة عسكرية على مملكة كاسينا فى بلاد الهوسا عام ١٥١٣م.

وقد عرفت الهوسا في مالي الاسلام بدءاً من القرن الثالث عشر الميلادي ولكن بإسلام ملك كانو وبإسلام ملك كاسينا فى القرن السادس عشر ساد الاسلام تلك المناطق ، ولكن لوحظ انه إختلط ببعض الطقوس والعبادات المحلية التى كانت سائدة قبل دخول الإسلام، الى ان قاد الشيخ المجاهد عثمان دان فودى حركة التجديد ببلاد الهوسا عام ١٨٠٤م.

** الهوسا والسودان:

من الصعب التأريخ لبداية استقرار الهوسا فى السودان إلا ان المؤرخين يؤكدون ان طرق الحج عبر السودان للحجاج من غرب إفريقيا وبخاصة السنغال ومالى عبر السودان كان الطريق امام تواجد واستقرار الهوسا فى السودان

وبالقاء نظرة عابرة لرقعة الإنتشار لهذه القبيلة فى ربوع السودان نجد تواجدا للهوسا فى منطقة القضارف كما يتواجدون بكثافة فى الحواته والشوك ودوكة وكساب ومصادر، ويعتمدون علي زراعة البساتين على ضفاف نهر عطبرة والرهد وينتشرون فى القلابات، وفى كسلا ووادي الدمازين والرصيرص وإمتداد سنار وقد انتشرت الهوسا كذلك فى المديريات الجنوبية المختلفة فى أعالى النيل فى ملكال وفى الأرياف حيث يعملون بالتجارة والزراعة والصيد وكذلك فى بحر الغزال، وبدءوا في التواجد فى العاصمة الخرطوم بدءاً من عام ١٨٢٠م حيث بدأت تجمعات الهوسا الى الخرطوم سواء تلك العابرة الى مكة المكرمة أو التى قصدت الإستقرار والإستيطان.

ومشهود للهوسا السودانيين امتلاكهم خبرات كبيرة فى مجال الزراعة علي وجه الخصوص، من ناحية اخري كان لأمراء الهوسا الدور الكبير فى حقبة الثورة حيث قدموا دفعة قوية لإنتصارات المهدى.

** الهوسا في السنغال:

تُعد قبيلة الهوسا أول قبيلة إفريقية إعتنقت الإسلام في غرب افريقيا عامة وفي السنغال بشكل خاص ، حيث استوطنت القبيلة فى عام ١٠٥٥م مناطق فى الجزء الأوسط من نهر السنغال وقد وصلها الإسلام عن طريق قبائل الطوارق وخاصة فرعها صنهاجة ولمتون وجدالة التى إنتهجت مذهب التمسك الصارم بالتعاليم الإسلامية وهو المذهب الذى جعلهم يرابطون فى غابات السنغال وعرفوا بالمرابطيين وعقدوا تحالف مع قبيلة التكلور وأنشأؤا دولة المرابطين.